

مسيحيين الشرقيين صِلَة خاصة دائمة بالكتاب المقدس. ولا عجب في ذلك لأنّ

آباءهم هم الذين كتبوه بوحى من الروح القدس. لذا نراهم ينظرون إلى الكتاب المقدس نظرة فريدة من نوعها. كما أنهم يجدون في العهد القديم صوراً وأحداثاً مجازية بلغت كمالها في العهد الجديد. وهذا التأويل يُدعى علم تصنيف النصوص أو الأحداث. ولعل خير مثال على ذلك قصة العنصرة كما رواها القديس لوقا في أعمال الرسل.

كيف يرمز العهد القديم إلى سرّ العنصرة

نفهم معنى العنصرة، ينبغي أن نرجع إلى العهد القديم ونتساءل: كيف يرمز إلى حلول الروح

القدس على العالم؟ كان اليهود القدماء يحتفلون بالعنصرة - ومعناها في اليونانية عيد الخمسين - في اليوم الخمسين الذي يلي عيد الفصح، وفيه يذكرون تحرّر الشعب الإسرائيلي من عبودية فرعون، إذ ضحوا الحمل الفصحي وعبروا البحر الأحمر. وفيه أيضاً كانوا يحتفلون بذكرى تلقي موسى الشريعة من يد الله على جبل سيناء، ويقطاف بواكير الثمار و تقدم أول الغلال لله تيمناً بوفرة الحصاد المنتظر.

وقد روى لنا القديس لوقا الإنجيلي حدث العنصرة المسيحية، بالبراعة الشرقية المعهودة، إذ ربطه بما له من رموز في العهد القديم، فالحمل الفصحي في العهد الجديد هو حمل الله المنزه عن كل عيب، المسيح ذاته، الذي نهض من الموت وخلص البشر من عبودية الخطيئة.

كما أنّ حلول الروح القدس على الرسل في اليوم الخمسين بعد القيامة، يُشير إلى الشريعة الجديدة، أي العهد الجديد الذي ختمه

الله بخاتمه الخاص. وحتى عيد البواكير، نجد له معادلاً في رواية أعمال الرسل للعنصرة المسيحية. فما الثلاثة آلاف نسمة، الذين اعتنقوا الإيمان بالمسيح عقب الخطبة التي ألقاها القديس بطرس يوم العنصرة، إلا باكورة الحصاد الروحي، إي الجماعة الأولى التي آمنت بالمسيح.

وفي رواية لوقا رموز أخرى تشير إلى العهد القديم. فالريح العاصفة تذكّرنا بالله ينفخ روحه على المياه عند خلقها في مطلع سفر التكوين. والألسنة النارية تذكّرنا بعمل الله الخلاق إذ أبداع الأرض بما فيها من مخلوقات. فالتار في العهد القديم علامة لحضور الله، كما يتضح من حدث العليقة الملتهبة ومامود التار الذي كان يسير أمام الشعب العبري. الألسنة النارية تشير إذن إلى أنّ الله أنزل قدرته على الرسل. فكانوا يخطبون بلغتهم في الجماهير المحتشدة من مختلف الأمم في أورشليم، فيفهمهم كلّ واحد كما لو كانوا ينطقون بلغته الخاصة. هذه الرموز وحدها كافية لإقرار لاهوت العنصرة. غير أنّ الروح الشرقية تحب أن تتخطى الأبعاد التاريخية لترتقي إلى ذروة الاتحاد الصوفي بالله.

وعليه، فالشرق المسيحي يعتبر العنصرة كشف الله النهائي عن ذاته كثالوث للإنسان. فمنذ اللحظات الأولى لبدء السيد المسيح رسالته العلنية، اطلع الانسان على سرّ الثالوث، أي وجود ثلاثة أشخاص في الله:

"في اعتمادك يا ربّ في نهر الأردن، ظهر السجود للثالوث. لأنّ صوت الآب كان يشهد لك، مسمياً إياك ابناً محبوباً. والروح بهيئة حمامة، يؤيد حقيقة الكلمة." (نشيد عيد الظهور الإلهي).

ولكنّ في العنصرة شهد المؤمنون نور الوحي ساطعاً بكماله:

"هلمّوا يا جميع الأمم نعبد الله بأقانيمه الثلاثة الكاملة القداسة، الآب والابن والروح القدس، الثلاثة في واحد. فالآب يلد الابن منذ الأزل، مساوياً له في الأزليّة والجلال، ومساوياً للروح القدس الممجد مع الابن في الآب. ثلاثة أقانيم، ولكن قدرة واحدة وجوهر واحد وألوهة واحدة. ولننتهف من أعماق قلوبنا عابدين: قدّوس الله الذي خلق كلّ شيء بابنه بواسطة روحه القدوس. قدّوس القويّ الذي به كشف لنا الآب وبه أتى الروح القدس إلى العالم. قدّوس الذي لا يموت، الروح المعزّي، المنبثق من الآب والمستقرّ في الابن. أيّها الثالوث القدوس المجد لك." (رتبة إحناء الركب)

ولما كان الكتاب المقدس قد استرسل في الكشف عن الآب والابن، نرى الكنيسة الشرقية تحصر جُلّ اهتمامها بالروح القدس في يوم العنصرة:

"أيها الإله الخفيّ السرمديّ، الكائن في ثلاثة أقانيم مقدّسة كاملة، الآب والابن والروح القدس، والمعروف بذات واحدة، لقد شئت أن تجدد الانسان الذي خلقته تاماً على صورتك، فتعرقل بمكيدة الشيطان وسقط، وعليه أرسلت كلمتك الأزليّ إلينا، فصار إنساناً كاملاً بطبيعتين وأقنوم واحد إلهيّ، غير منفصل عن جوهر لاهوته. فنهج

الميرون، عنصرنا الشخصية

يستحيل التفكير في الروح القدس دون
ذِّكر سرِّ الميرون المقدَّس.



فالعهد القديم يقصُّ علينا كيف أنّ الشعب الاسرائيليّ
ضحّى أوّلاً بالحمل الفصحيّ، ثمّ عبر البحر الأحمر وبلغ
جبل سيناء حيث كشف الله له عن شريعته. أمّا في
العهد الجديد فالتّضحية بحمل الله وسكب ماء
المعمودية، يقودان شعب الله إلى العنصرة المسيحيّة،
حيث يمنح الروح القدس مواهبه ويخطّ شريعته الجديدة
على قلوب الجميع. وكما كانت العنصرة مرتبطة ارتباطاً
وثيقاً بالفصح في العهد القديم، كذلك في العهد الجديد
يرتبط الميرون بالمعمودية على نحو ثابت، بحيث لا يجوز
منحه إلّا في المعمودية، مع الافخارستيا (القران
المقدَّس). لهذا السبب تمنح الكنيسة الشّرقية سرّي
المعمودية والميرون معاً.

ختاماً، إذا تأملنا في إيقونة العنصرة، رأينا في وسطها
الأماميّ شخصاً متوجّاً. إنّه يمثّل العالم الذي سيتحوّل
في المسيح بقدرة الروح العامل في الكنيسة. وهذا التحوّل
يعبّر عنه القديس الحبيب سيرافيم ساروف بقوله: "كُنْ
مسكناً للروح القدس، تُخلِّصُ ربوهُ ممّن هم حولك من
الناس."

لنا طريق الخلاص، وعرفنا أموراً غيرَ معروفةٍ عندنا.
عرفنا بك وعرفنا أنه منك، وأعلمنا بانثاق الروح
القدس، روح الحقّ، الروح المعزّي، الروح الحكيم،
الروح المحب البشر، المرتب الأنبياء، والمفقه الرسل،
دليل المرّتين والقادر على كل شيء.
(من رتبة السجدة في الطقس الماروني)

وهناك رموز أخرى في العهد القديم تستذكرها الكنيسة البيزنطية
الشرقية في احتفالها بعيد العنصرة. ومنها قصّة برج بابل:

"لما نزل العليّ وبلبل الألسن قسّم الأمم. ولما ورّع
الألسن النارية دعا الجميع إلى الوحدة. فتمجدّ الروح
القدّوس بأثحاد الأصوات."
(نشيد الختام لعيد العنصرة)

أمّا بواكير الغلال فنرى الإشارة إليها واضحة في عادةٍ شاعت في
الكنيسة السلافية البيزنطية، فالكهنة يرتدون الملابس الخضراء،
والكنائس تزين بالأغصان الخضراء في عيد العنصرة، لأنّ المسيحيّ
الشّرقيّ يرى في اللون الأخضر، الذي تتسرّب به الطبيعة عندما
تتجدّد، رمزاً للروح القدس، واهب الحياة، الذي يسمّيه القديس
باسيليوس في أنافورة قدّاسه: "باكورة الخيرات الأبدية، القدرة
المُحيية، ينبوع التقديس."

العنصرة :

كمال الشريعة



مكتب الخدمات التربوية
لأبرشية نيوتن الملكية
<http://mekite.org/>

حقوق الطبع محفوظة لكتابة الأيقونات
دير القديسة إيليزابات - دوقة روسيا الكبرى
<http://www.conventofsaintelizabeth.org/>

عن مقالة نشرت أصلاً
في مجلة نيرايسست الكاثوليكية الإصدار السادس
العدد الثاني
(صيف 1980) أعيد الطبع بالإذن